قراءة في ديوان

حديث الريح لداود معلا*

شاعرنا داود معلا كسائر الشعراء، عنده الشعر الجيد الذي يرقى إلى مصاف شعر الشعراء الكبار، وشعر دون ذلك، وله أبيات في قمة الروعة، وأبيات حُشرت حشراً لتكملة القصيدة، وقد كادت أن تخلو من الشاعرية.

بقلم: حيدر قُفّة

وقبل الخوض في التفاصيل، أريد أن ألم إلمامة سريعة بمجمل الديوان، وانطباعاتي عنه، في ملاحظات سريعة.

١ - أغلب قصائد الديوان يتحدث فيها الشاعر عن فلسطين عامة، والقدس بالذات خاصة، وهذا ليس غريبا، فهو من مواليد قرية المالحة قرب القدس سنة ١٩٣٣م، هذا من جانب، وهو ذو خلفية إسلامية خالصة من جانب آخر، والقدس تشكل بُعداً إسلاميا، بالإضافة إلى البعد الوطني، الذي يتغنى به الوطنيون، فلا غرابة إذاً، إن وجدنا شاعرنا يجنح بنا في أغلب قصائده إلى القدس، حتى تلك التي يبدو ظاهرها غزليا أو وجدانيا، تتحول بعد قليل إلى جانب الأرض، والوطن، والهم العام لهذا الشعب.

٢ - بعض القصائد نشعر فيها بحرّ الدفقة الشعورية العارمة في البداية، ولكن ما تلبث أن تبرد هذه الدفقة، أو تتلاشى هذه الومضة، وتكتمل القصيدة بروح النظم، ويبدو فيها حرص الشاعر على تطويل القصيدة، مما يضعفها، ولو أنه اقتصر على الدفقة الأولى لكانت أجود.

٣ - بعض القصائد تشعر أنها من البداية ليست وليدة تجربة شعورية حقيقية، أو إحساس صادق بالحدث، وإنما نُسجت من أجل الرغبة في القول، أو مجاراة لحدث ما مسيطر على الساحة في وقته، فلا ينفعل به من الداخل مثل قصيدة «المسير إلى اليوم قبل الأخير ص٣٧».

٤ - رغبة الشاعر في أن يبدع قصيدة طويلة ظهرت في قصيدته «إلى حفيدي بشار ص٤٧» فهي تحتوي على عدة مقاطع، كل مقطع يشكل وحدة مستقلة، لكن في القصيدة مقاطع جيدة، كما في البداية، ومقاطع دون ذلك، حيث الضعيف الفاتر.

٥ - الشاعر متمكن من لغته الشعرية، ومن إبداع الشعر ذي الشطرين، لكنه - وأحسبه تقليداً للسائد - جنح إلى شعر التفعيلة، أو الشعر الحر - ولا أجد ضرورة لذلك - فجاءت قصائده هذه ضعيفة جداً، لا تليق به، فهي تشبه بدايات الشعراء في فترة التجريب خلال سني مرحلة الدراسة الثانوية، فضلا عن الإغراق في الرمز، الذي أفقد القصائد خاصية الدخول المباشر للقلب، والعلوق به، فما فائدة قصيدة لا يفك طلاسمها إلا قائلها؟!

٦ - الشاعر يبدأ بدايات غزلية رقيقة رائعة، لكنه لا يلبث أن يهرب من هذا الجو، ويحول غزله جهة الوطنية أو الإسلامية، فلم هذا الهروب؟ هل الغزل العفيف مما يعاب عليه؟ أم أنه - وقد أصبح جَدًّا - يجد شعر الغزل لا يليق به؟! أم يعد ماضيه وحاضره اللذين يصنفانه في قافلة الدعاة إلى الله

* شاعر أردني، من مواليد ١٩٣٣م في قرية المالحة التابعة للقدس.

تظهر مهارة الشاعر في القصيدة العادية.. لكنه يجنح إلى شعر التفعيلة مجاراة للسائد

يتنافيان مع الإحساس بالحب، ورعشة القلب، والترنم بالغزل؟! لا أدري سببا وجيها يدفعه لذلك، وهو ليس في حاجة لأن أذكره أن الإسلام لا يعارض الغزل العفيف.

٧ - هناك قصائد يبدؤها بالوجدانيات، لكنه يضن على الناس بمواصلة السير في قصيدته على هذا المنوال الرائع، فيهرب - أيضاً - إلى الوطنية والإسلامية، ولكأني به بعد أن مهمته توصيل رسالة ما، وهو في سبيل هذه الرسالة يئد كل نسمة حانية تهب على قلبه وقلوبنا.

وأنا أخالفه الرأي هنا، كما خالفته هناك، فالوجدانيات لا تقل أهمية عن الشعر الدعوي أو الوطني أو السياسي، وكلنا نحتاج إلى ضروب الشعر كلها.

* * *

أما عن الديوان، فيقع في مئة وثلاث صفحات من القطع المتوسط، وقد حوى تسع عشرة قصيدة، أعجبني منها القصائد التالية: (كلمات على حد السيف ص١٩)، (الشجر المأسور ص٢٥)، (الشهيد والفأس ص٤١)، (إلى حفيدي بشار ص٤٧)، (في ذكرى الهجرة ص٥٥)، (الشهيد وشجرة الزيتون ص٦٠)، (الدخول إلى التاريخ عن طريق الهجرة النبوية ص٦٣)، (بطاقة من نوار لابنتي في العيد ص١٠١).

ونلاحظ أن ثنتين من قصائده المشار إليها آنفا جاءتا على روى الياء، والياء تشير إلى الملكية والخصوصية، وهذا الحرف مسبوق بحرف النون، والنون حرف مجهور متوسط، فإذا التقى الحرفان - النون والياء - منحا القصيدة خصوصية الالتصاق والحنو، والتشكيل الذاتي داخل النفس، مما يجعلها ألصق بالقلب.

وهناك قصيدتان ختمهما الشاعر بحرف الدال ملحوقا بألف الإطلاق وهما (إلى حفيدي بشار ص٤٧) و(بطاقة من نوار إلى ابنتي في العيد ص١٠١). أما في قصيدة (في ذكرى الهجرة ص٥٥) فنجده قد خصص لها قافية حرف الهاء المسبوق بالألف، وكما هو معلوم أن حرف الهاء يستفرغ الهواء من الرئتين، فإذا سُبق بالألف، منحا السامع إحساساً بالتوجع والحزن، فكانت هذه القافية مناسبة لموضوع القصيدة، حيث جنح الشاعر فيها إلى تعديد مآسي المسلمين في هذه الذكرى العطرة، فجاءت القافية مشاكلة للـ(آه) التي يتوجع بها المحزون، فتريح أعصابه، وتلطف من حر اكتئابه. بينما كان روي قصيدة (الشجر المأسور ص٢٥) الراء، و(الشهيد والفأس ص٤١) الميم مع الألف، وكلها حروف لها جرس أخاذ.

وتمتاز قصائد داود معلا ببراعة الاستهلال، الذي يأخذ بلب السامع أو القارئ من بداية القصيدة فتراه يقول في القصائد المشار إليها:

مُـــدي يـــديكِ فما ســـواك يـــراني
أعـــدو وقـــد عصبـــوا يـــدي ولســـاني
(كلمات على حد السيف ص١٩)

عينـــاكِ مـــالي أُنـــاديها.. فتعتـــذرُ
تـــومي إليَّ حيـــاءً ثـم تستتر
(الشجر المأسور ص٢٥)

نـــاديتُ ثُـــرابَكَ حين ضَـمَّ الأعظُما
للـــه بعـــدك.. قـــد تـــركتَ اليُتَّما
(الشهيد والفأس ص٤١)

بشـــارُ، والتفـت الكـــلام قصيـــدا
وأطـلَّ عيـــدُكَ يستثير العيـــدا
(إلى حفيدي بشار ص٤٧)

حَسبُ الهُدى أنْ تجلى فيـك معنـــاهْ
يـــا خيرَ من أشرقت بـــالنـــور ذكـــراه
(في ذكرى الهجرة ص٥٥)

لَبَّيـــك، وارتعشـــت تقبلنـــي
أوراقهـــا الخضرا وتسقينـي
(الشهيد وشجرة الزيتون ص٦٠)

ولا يقتصر الجمال والحسن على بيت الاستهلال وحده، بل نجد في القصائد أبياتاً رائعة متفردة في جمالها ومعانيها، لما حوت من صور شعرية، وخيال خصب، ومن هذه الأبيات على سبيل المثال ما يلي:

والله لـــو زرعـــوا ثـــراك قنـــابـــلا
ومع القنـــابل ألـف.. ألـف جبـــان
لفقـأتُ عين الموت مـلء عيـــونهم
ورميـــتُ أعظمهـــم إلى النيران
(ص٢١)

فـــرأيتُ فيكِ على المدى بُعـــدَ المدى
وكتبتُ فـــوق جبينـــه.. عنـــواني
(ص٢٢)

عينـــاك يـــا قـــدسُ شيء ثمَّ يجذبني
فيهـــا فتُغْـــرِقُني.. أهـــدابها السمـــرُ

هـــات اعطني ســـاعـــةً أنسل من ظمئي
في غَـــوْرِهـــا فتـــلاقيني بها الـــدُّرَرُ
(ص٢٥)

لكن جُـــرحَكِ لا يغفـــو النـــزيفُ بـــه
مـــازال حـــول ضفـــاف النهـــر ينتظـــر
فـأنت فينـــا وفي أطفـــالنـــا أبـــداً
وهـل يخالـفُ قلبَ الغيمـــــة المطـــــر
(ص٢٧)

يتلفت الماضي على أشـــــلائنـــــا
فـــزعـــاً، ويـــرقـب حـــاضراً مـــردودا
(ص٤٨)

نفـــاخـــر النـــاس بـــالتـــاريـخ واعجبي
لم لا تُنَبَّـتُ للتـــــاريـخ معنـــــاه
. . . . .
ألم يُصَـلِّ بها الفـــــاروق محتسبـــــا
ألم تُقَبِّـلُ أديـمَ الأرض كفـــــــاه
(ص٥٨)

إذا اشتكى جبل من ريح عـــاصفـــة
كفـــاه هَـمَّ الـــريـــاح الشـــامخُ الجبلُ
(ص٩٥)

رُشّـــوا علينـــا بـــذار الموت . . وانتظـــروا
فكـل بـــــذرةِ مـــوت حـــولها رجـل
(ص٩٦)

وكما أن للشاعر أبياتا رائعة في قصائده الجيدة، كذلك نجد أبياتا دون ذلك، أُلحقت بالقصائد إما لتحكم القافية في الشاعر، وإما لتطويل القصيدة، وإما هبوطا في مستوى الانفعال لذهاب الومضة أو فتور الدفقة الأولى، فجاءت خالية من الفكرة الجيدة، أو الصور الشعرية الموفقة، فكانت مجرد كلام مرصوف لحشو القصيدة ليس إلا.

ففي قصيدة «الشجر المأسور» يقول ص٢٦:

وهكـــــــــذا أنـــتِ لا شيءٌ يغتربني
عما أراك بـــــه لا الـــدَّهـــرُ لا العُصُرُ

وفي القصيدة نفسها يكرر في بيتين كلمة (السمع والبصر) هكذا:

مـــــاذا أرى وهمومي فيـك تـــــدفعني
إلى الجنـــــــون . . وأيـن السمعُ والبصرُ
. . . . .
يمـــوت قبل وصـــول الموت ظـــالمنـــا
رعبـــــاً ويسقط منـــــه السمعُ والبصرُ

مما أفقد القصيدة رونقها وبهاءها.

وفي قصيدة إلى حفيدي بشار ص٥٢ يقول:

هـم أجبـن الجبنـــــاء لا تلقـــــاهـمُ
إلا ثعـــــابينـــــا تحوم ودودا
جبنـــاء حتى في الظـــلام فيـــا تُـــرى
كيـف استحـــالـــوا أنْمُـــراً وأُســـودا

كلام مرصوف لا جديد فيه، بل فيه تناقض، حيث إن الظلام وحده كفيل بزعزعة الثقة، ولكنه هنا يعده دافعاً للشجاعة على غير المألوف.

وفي القصيدة نفسها يقول ص٥٢ أيضاً:

حَـرَقـوا الـرجـال على الـرمـال وغـادروا
صرح العـــروبـــة عـــائما مهـــدودا

ماذا يقصد بالعوم هنا؟ هل يقصد عدم التماسك لهول الضربة؟ ولو كان يقصد ذلك لكانت هائما - بالهاء وليس العين - أقوى وأجود، فمن عادة المبتلىٰ بكارثة أن يهيم على وجهه من الذهول، أما العائم فقد يكون متماسكا، مدركا لما يفعل، وهو كذلك، وإلا غرق، فكانت (عائما) مضعفة للبيت فوق ضعفه. وفي قصيدة «في ذكرى الهجرة» يقول ص٥٩:

عـــودوا فـــوالله إن النصر عَـــوَّدكم
عـــــودوا لإســـــلامكم ينصركم الله

أي شاعرية في هذا البيت؟ وما الفرق بينه وبين المواعظ التي تقال في المساجد؟ لا شيء.

وفي الديوان أيضا نجد قصائد قالها الشاعر متأثراً بغيره، وهو إما يصرح بذلك، كما في قصيدة «صبر العراق» ص٩٤، أو لا يصرح، لكنها تظهر في ثنايا الأبيات، مثل قصيدة «بطاقة لابنتي نوار» ص١٠١ التي يحاكي بها القصيدة المغناة «غنيت مكة» وهي التي تترنم بها المغنية فيروز - ولا أعرف قائلها - وقد تجلت المحاكاة في أكثر من بيت، وربما القوافي نفسها، وانظر على سبيل المثال البيت الذي يقول فيه:

لا زهـــــرةٌ ضحكـــتْ إلا ولَـــــوّنها
عطـــرٌ على الـــزهـــر من أجفـــانها زيـــدا

* * *

والشاعر - كما أسلفت - له خلفية إسلامية، رسخها نضال لإعلاء كلمة الله، لاقى في سبيله ما لاقى، وهو إذ يترنم بالشعر، لا ينسى هذه الغاية الغالية، غاية تثبيت دعائم الإسلام، والدعوة لإقامة الدولة الإسلامية، وإحياء الخلافة الموؤودة، وتربية شباب الإسلام، وسماتهم وأوصافهم. . . فهو يقول:

تميلُ حـــولَ شعـــاعِ الشمس أعظُمُهُمْ
وتستـــوي في صـــلاة الليل إن سهـــروا
تشتـــدُّ. . فهي على الإيمان ثـــابتـــةٌ
تعتـــــدُّ. . فهي بسيف الله تعتمـــــر

(ص٢٧)

عقيـــدةٌ هي مـــاضينـــا وحـــاضِرُنـــا
وســـاعـــدٌ هـــو فينـــا الصـــارمُ الـــذكـــرُ
فما على حُلمِ الماضي جَحَـــافِلُنـــا تنـــام
بلْ حـــــاضرٌ. يصفـــــو ويعتكـــــر

(ص٢٨)

لا. . والـــذي هـــزم الأحـــزاب ثم تـــلا
هـــا الـــروم. . والفـــرس. . والإفـــرنج والتتر
لا عـــزة لســـوى الإســـلام راغمـــة
أنـــوف من بـــدلـــوا عهـــداً ومن غـــدروا

(ص٢٩)

ويشير إلى معاركنا مع اليهود إشارات عصرية، وتاريخية، ونَصِّية فيقول:

ذي جَـــولـــةٌ، وعلى التـــاريخ خَـــاتَمُنـــا
يـــراهُ من أقبلـــوا منهم ومن دَبَـــروا
أجـــدادُنـــا شهـــداءُ الأمسِ تَتْبَعُهم
أحفـــادهم. . أفينجـــو الكـــافِـــرُ البَطِـــرُ

(ص٢٩)

. . . . .

حتى نـــرى رايـــة الإيمانِ تجمعنـــا
وينطق الشجـــر المأســـور والحجـــرُ

(ص٣٠)

إشارة للحديث المشهور عن المعركة الفاصلة مع اليهود، كما أخبر بها رسول الله ﷺ.

ويقول أيضا - وفيه إشارة للتاريخ والمعتقدات -.

ويهودُ تعجنُ بـــالـــدمـــاءِ فطيرهـــا
وتهزُّ ألـــويـــة لنـــا وبنـــودا
لم يشهـــد التـــاريخُ بعـــد محمـــد
أن اليهـــود تجاوزوا الأحـــدودا

(ص٥١)

وأما التضييق الذي يلاقيه الإسلاميون، فلم يغفل عنه، فيقول في قصيدة «في ذكرى الهجرة» ص٥٨:

مَنْ نحنُ؟ هل ضاقت الدنيا بوحدتنا
حتى استباح حمى الإسلامي أشباه
الشرق يغزو حمانا في عقيدتنا
والغرب يسعى إلينا فاغراً فاه

ونكتفي بهذه النماذج؛ لأن الاسترسال فيها يخرجنا عن حد الإشارة، وإلا فالديوان مليء بالتوجهات الإسلامية الواعية.

ومن الموضوعات الطريفة التي استوقفتني في الديوان، العلاقة بين المخبر والغراب، من حيث السواد في اللون، وموروث الشؤم، والعلاقة بينه وبين تراب الوطن. فهذا الذي جعل من التجسس على الناس مهنته وحياته، فهو دائم التجوال، مفتوح العينين والأذنين، ليلتقط الأخبار، ويختل الأصدقاء، ويسرق منهم همساتهم. . . منبوذ مكروه، صورته في الذهن قرينة لصورة الغراب الأسود. وليس الأمر كذلك وحسب، ولكنه - أيضا - منبوذ من الوطن، لا سيما وقد كثر دور هؤلاء في معاداة أهل الإيمان وكانوا أشواكا في حلوقهم، أو خناجر في خواصرهم.

فهذا المخبر اللعين، عندما أبلغ أسياده بوشايته برجل مؤمن، جاؤوا، فلم يجدوا عند التفتيش الدقيق من أدوات التجريم إلا المصحف!! فعادوا والخزي ملء عيونهم.

لكنه - أي شاعرنا - يراهن على طبيعة الحياة، الحياة التي لا تُبقي أحداً على حال، فكيف بهذا المتواطئ، إذا انقلبت له الأمور، وطُرد من جنة إبليس، ما مصيره؟ وأين يجد المأوى لعظامه؟ أفي تراب الأرض التي خانها؟ أم في أحضان الشعب الذي روعه في أبنائه، بل خيرة أبنائه؟ إنه عندما يلفظه أسياده مستغنين عن خدماته، سيجد الناس أيضا يلفظونه، بل والأرض ستلفظ هذه العظام النجسة، فالأرض طهور، ولا تقبل إلا الطاهرين.

بَيْدَ أنَّ القالب الذي صاغ فيه الشاعر قصيدته لم يسعف الفكرة الطريفة، ولا الموضوع المهم الذي طرقه، فجاءت القصيدة ضعيفة فاترة، ولو أنه صاغ هذه الفكرة على غرار قصائده الرائعة من الشعر ذي الشطرين - الذي يُحْسِنه - لأبدع أيما إبداع، ولمنحنا قصيدة رائعة موضوعاً، وشعراً، لا تقل عن قصيدة هاشم الرفاعي - عليه رحمة الله - في ليلة التنفيذ، لكنه لم يفعل.